

كلمة عضو مؤسسة فؤاد شهاب، العميد الركن المتقاعد جان ناصيف
في مناقشة كتاب "جمهورية فؤاد شهاب" بدعوة من النادي اللبناني للكتاب وبلدية جونبة
بتاريخ الثلاثاء ٢٤ شباط ٢٠٠٩ الساعة السابعة مساءً في مبنى بلدية جونبة

أشكر أعضاء النادي اللبناني للكتاب وبلدية جونبة لدعوتي للمشاركة في مناقشة كتاب "جمهورية فؤاد شهاب" للصديق الصحافي نقولا ناصيف، تاركاً أمر المناقشة للأسئلة والأجوبة، مفضلاً الإثارة على النزعة الوطنية للواء الرئيس فؤاد شهاب والتي ترجمها بناءً في الجيش الذي قاد وفي الدولة التي رُئس.

الكلام عن الرئيس اللواء الأمير فؤاد شهاب سهل وممتع. فالرجل لم يكن يحب السياسة في قاموسها اللبناني ولا الكلام السياسي ولا المناورات السياسية، بل كان صامتاً وهو القائل "كنت وما زلت الرجل الذي عرفتم، عزوفاً عن القول وإيثراً للصمت في اداء الواجب" اي انه كان يعمل بصمت وفقاً لرؤية واضحة عنده ولحلول عملية لمشاكل ومطالب الناس في لبنان. ان ذلك ناتج عن نشأته وعيشه المباشر مع الناس في أطراف لبنان الفقيرة في عكار والجنوب ثم البقاع وحال العشائر هناك.

ان الحديث عن أي شخص يستلزم استحضار نسبه ونشأته وبيئته وتجاريه، فهو سليل الإمارة الشهابية ومن أم شيخة حبشية. هاجر والده وهو في الخامسة وانقطعت أخبار الأب وكان فؤاد يكبر أخويه فريد وشكيب. عاشت العائلة في فقر واضطر البكر الى الدراسة والعمل في آن معاً. كان فقر طفولته مصدر تقشّف رافقه سني حياته تاركاً أثراً بارزاً في قراراته كقائد للجيش ورئيس للجمهورية.

بعد هذه المقدمة سأتناول بإيجاز أهم منجزاته في قيادة الجيش وفي رئاسة الجمهورية مع المرور إماماً بمواقف وطنية ومفاصل أساسية في حياته.

انثناء فترة الانتداب خدم كمساعد لقائد موقع راشيا الوادي من ١٩٣٠ وحتى ١٩٣٦ وكان يعمل في امرته جنود لبنانيون وفرنسيون تسنى له خلال هذه الفترة الاتصال بالأهالي والتحاور معهم والتعرف على حالهم وعلى حاجاتهم فوجد نفسه قريباً من البيئة الشعبية اللبنانية التي تمثل نموذجاً مثالياً للوحدة الوطنية والعيش المشترك وكذلك لفهم طبيعة الحياة في المناطق النائية المحرومة من نعم الدولة المتمركزة في العاصمة ومن هناك بدأ يختزن في وجدانه الانساني والاجتماعي واجب العمل من أجل العدالة والعلم والانماء والمساواة في جميع المناطق.

خلال فترة الانتداب ومنذ ١٩٣٦ تولى قيادات لولايات عسكرية ضمت لبنانيين وسوريين وانتهت قوات هذه الولايات بأن تشكل نواة الجيشين اللبناني والسوري بعد نيل الاستقلال. كان الضابط فؤاد شهاب يحرص عند مخاطبة ضباطه وجنوده على تأكيد ضرورة تأييد رفاقهم العسكريين اللبنانيين في أي نزاع ينشب بينهم وبين عسكريين فرنسيين وما حادث الشجار بين المعاون حسن ديب اللبناني والرفيق أول أزو "ابن تولوز" الفرنسي إلا تعبيراً عميقاً وصادقاً للروح الوطنية التي رافقت مواقفه، وحادث الشجار هذا اختصره كما رواه لي العميد انطون سعد: "ان شجاراً بالأيدي نشب بين هذين العنصرين في ثكنة الخيام عام ١٩٣٦ حيث كان الملازم انطون سعد مسؤولاً هناك. كان لهذه الحادثة صدى سلبي لدى قيادة الأركان

للحرب في بيروت وكان الكومندان فؤاد شهاب قد ضمنه القيادة الفرنسية اليها. ارتأت القيادة ايفاد ضابط فرنسي مسؤول يرافقه فؤاد شهاب للاطلاع على ما جرى ومعالجة ذبوله. وبوصولهما راح الملازم سعد يروي ما حدث وخلص الى انه اتخذ تدبيراً لحل المشكلة، قال بمباهاة واغتراب: انه وضع الفرنسي في المستوصف واللبناني في السجن. وهنا لاحظ أن الامتعاض ظهر على وجه فؤاد شهاب. عاد سعد الى مكتبه متسائلاً لماذا هذا الانزعاج؟ وفي هذه الأثناء سمع نقرة على زجاج شبك الغرفة فكان فؤاد شهاب الذي قال له "يا غبي يا الاتنين في المستوصف او الاتنين في السجن. "ديب أبقالك من آزو". ديب باقي وآزو رايح. هل ان ديب ذهب الى تولوز لضرب آزو ام ان آزو القادم من تولوز هو من ضرب ابن بلدك". هذه الملاحظة من فؤاد شهاب لأنطون سعد، الذي أصبح رئيساً للمكتب الثاني أثناء تولي اللواء شهاب قيادة الجيش ومن ثم رئاسة الجمهورية، تركت أثراً كبيراً وتحولاً جذرياً في سلوك سعد، وعندما أتحت له فرصة المجيء الى بيروت كان همه مقابلة الكومندان شهاب. وهذا ما حصل، فكانت انطلاقة العلاقة بين الرجلين.

الإشارة البارزة الثانية لنزعة فؤاد شهاب الوطنية، كانت الوثيقة التاريخية التي كان أول موقعها مع أربعين ضابطاً لبنانياً في اجتماعهم في زوق مكاييل بتاريخ ٢٦ تموز ١٩٤١، وقد قرروا الاعتصام في ثكنهم مع وحدات المتطوعين اللبنانيين الخاضعين لإمرتهم، تجنباً لانحياز الى القوات المتقاتلة البريطانية والفرنسية المنقسمة بين قوات فيشي وقوات التحرر. تقول الوثيقة: "نحن الموقعين بذيله، ضباط القطع اللبنانية، نتعهد مقسمين بشرفنا اننا لن نقبل الخدمة إلا في سبيل لبنان وتحت رايته، على ان لا تكون لنا علاقة إلا مع الحكومة الوطنية وان نعمل لأجل تحقيق هذه الأمنية الى ما شاء الله، وكل من يسلك غير هذا الطريق يعتبر خانناً ويشهر به".

الإشارة الثالثة التي أود إبرازها ايضاً في مجال الحس الوطني اللبناني العميق في نفس فؤاد شهاب، ما حصل معي شخصياً يوم توقيع اتفاق القاهرة في الثالث من تشرين الثاني ١٩٦٩. اتصل بي في مكنتي بوزارة الدفاع، وكنت يومها رئيساً لفرع الصحافة في الشعبة الثانية، قائد الجيش العماد اميل بسناني من القاهرة، وأملى عليّ البيان الختامي المشارك لما سمي اتفاق القاهرة، طالباً إذاعته رسمياً مساء ذلك اليوم ليتزامن مع إذاعته ايضاً من القاهرة. خابرت رئيسي المقدم غابي لحدود، وبناء لإشارته خابرت كل من رئيس الجمهورية شارل حلو الذي طلب مني إطلاع رئيس الحكومة رشيد كرامي. كان ردّ الرئيس كرامي "لا حول ولا قوة إلا بالله" ورغب إليّ إطلاع الرئيس شهاب. أعلمت رئيسي المقدم لحدود عن النتائج ورغبة الرئيس كرامي فوافق، واتصلت بالرئيس شهاب الذي بادرني: مش قليلي... اتفقوا!! عندما قرأت للرئيس شهاب نصّ الاتفاق استوقفني طالباً إعادة قراءة ما ورد في المقدمة خصوصاً الفقرة التي وردت فيها عبارة "أهداف الأمة العربية" فقال لي الرئيس شهاب: "يا ابني، أبدل أهداف الأمة العربية بالأهداف العربية". أما بالنسبة الى المسؤولين المصريين اللذين حضرا توقيع الاتفاق (السيد محمود رياض وزير الخارجية، والفريق محمد فوزي وزير الحربية في الجمهورية العربية المتحدة)، طلب الرئيس شهاب الإشارة الى صفتها في إطار العمل العربي الموحد أي القيادة العربية الموحدة في حينها. وقال الرئيس شهاب لي:

'هكذا نضفي على الاتفاق الصفة العربية والغطاء العربي الكامل بدلاً من الاكتفاء بالغطاء المصري وحده. فهذه هي الصيغة التي تلامنا هنا في الداخل اللبناني". وقد أطلعت المقدم لحدود ومن ثم الرئيسين حلو وكرامي على ملاحظات الرئيس شهاب. وكان ما كان.....

مع بزوع شمس الحرية وإعلان الاستقلال وفي الأول من آب ١٩٤٥ عين الزعيم فؤاد شهاب قائداً لجيش الاستقلال. لم يكن هذا الاختيار لاسم او نسب عائلي بل لشخصية عسكرية وطنية مميزة تتمتع بالوطنية والنزاهة والأخلاق وبالكفاءة المهنية الكفيلة ببناء وتنظيم جيش يكون ضمانته للاستقلال وسياباً للنظام والدستور.

اول واجب وطني لقائد الجيش انطلق من الحدود الجنوبية في معركة المالكية الشهيرة حيث رفع العلم اللبناني منجزاً المهمة التي أمر بها بنجاح.

على مدى السنوات من ١٩٤٥ وحتى ١٩٥١ كان على اللواء فؤاد شهاب ان يبني الجيش على أسس من العلم والتخطيط وعلى مرّ السنين أعاد بناء الأسلحة البرية من مشاة ومدفعية ومدركات وهندسة وإشارة كما أنشأ سنة ١٩٤٩ سلاح الجو وأعدّ له الطيارين الذين تدرّبوا في بريطانيا وصار للبنان في ذلك الوقت قوة جوية مشهود لها بالفعالية، وعام ١٩٥٤ أنشأ القوى البحرية وتلقى ضباطها تدريباتهم في المدرسة البحرية الفرنسية. الى جانب بناء الأسلحة المتعددة الاختصاصات، جرى تطويع الجند وبناء الثكنات في مختلف المناطق على قاعدة أخذت في الاعتبار الضرورات العسكرية من جهة والمصالح الاقتصادية والاجتماعية لهذه المناطق من جهة أخرى؛ وهكذا نشأت علاقة وطنية وطيدة بين الجيش والشعب، فالجيش من الشعب ومن الطبيعي ان تكون بين المواطن والجندي مودة وعطاء متبادل.

واكب إنشاء الأسلحة وبناء الثكنات تطويع الجند وتدريبهم في جو من الألفة والانضباط وكذلك تنشئة الضباط في المدرسة الحربية، وطلاب المدارس الثانوية في المخيم الصيفي للتدريب العسكري، وقد اندفع عدد كبير من هؤلاء الطلاب بعد فترة التدريب الى الانخراط في المدرسة الحربية وأصبحوا قادة مميزين في هذا الجيش. هكذا انصهر الجميع على أسس من الولاء الوطني والانضباط والتضحية وكران الذات فأصبح الضابط المتخرج من الحربية والجندي المنتهية فترة تدريبه كالمترهب مقسماً اليمين "أقسم بالله العظيم ان أقوم بواجبي كاملاً حفاظاً على علم بلادي وزوداً عن وطني لبنان"، وأصبح شعار الجيش "شرف، تضحية، وفاء".

مع تقدم الزمن بإنشاء الجيش الوطني، ازدهرت مدارس التدريب وتطورت برامجها لتماشى متطلبات العصر وكانت المدرسة الحربية الرائدة في توسيع برامجها لتشمل الى جانب العلوم العسكرية والتنشئة الوطنية العلوم الثقافية والاجتماعية والإنسانية والتي يحاضر فيها كبار من اساتذة الجامعات والمفكرين. خلال توليه القيادة حصن اللواء شهاب الجيش ونشر فوقه مظلة تحميه من أي تدخل او اختراق وعندما عصفت بلبنان أزمات سياسية كان الجيش صمام الأمان والحامي للنظام والدستور. فسنة ١٩٥٢ وبعد استقالة الرئيس بشارة الخوري تولى اللواء شهاب رئاسة الحكومة والدولة لأيام معدودة حتى انتخاب

رئيس جديد فأعاد الأمانة الى موقعها رافضاً الرئاسة بإباء رغم إلحاح الكثيرين عليه بأن يكون هو الرئيس، وعاد ليقود المؤسسة العسكرية، "الصامت الأكبر".

كان القدر ينتظره العام ١٩٥٨ عندما اندلعت أزمة سياسية تحولت الى صراع مسلح وبعد إلحاح داخلي وإقليمي ودولي، أنتخب رئيساً. كان عليه ان يوقف القتال المسلح بين اللبنانيين وان يعالج الأسباب التي أدت الى ذلك فبدأ بإقامة دولة المؤسسات وتحقيق العدالة الاجتماعية والإتماء المتوازن بين كل المناطق والمواطنين تأسيساً للوحدة الوطنية المتينة والدائمة وهكذا كان رجل الدولة ورجل السياسة والحكمة البعيد عن الممالأة والمداهلة.

يقول الوزير فؤاد بطرس في كتابه "المذكرات" الذي صدر منذ ايام: "في الثلاثين من أيلول ١٩٥٩ وبعد لقاء مع الياس سركيس مدير غرفة الرئاسة، ولم أكن أعرفه قبلاً، أبلغني ان الرئيس شهاب يفكر في توسيع الحكومة وان أكون ممثلاً للأرثوذكس، وأن الرئيس سيطلعك على تصوره في هذا الشأن طالباً مني انتظار مكالمة هاتفية. في العاشرة والربع ليلاً من ذات النهار، اتصل بي من القصر الجمهوري ناظم عكاري، مدير عام رئاسة الحكومة طالباً مني الحضور الى منزل الرئيس في جونية. فتوجهت على الفور. ولما دخلت المنزل وجدته مع الرئيس كرامي الذي نظر الى الرئيس قائلاً: الأستاذ فؤاد بطرس". ثم دعاني الرئيس شهاب الذي لم أكن قد اجتمعت به قبلاً، الى غرفة جانبية، وعقدنا اجتماعاً ثنائياً. راح يشرح لي الخطوط العريضة لمشروعه الرامي الى بناء لبنان على قواعد صلبة والتزانه المطلق ببناء دولة عادلة قوية يثق بها جميع اللبنانيين فلا يعودون منتمين الى طوائفهم اكثر مما ينتمون الى وطنهم. ويقول الاستاذ بطرس: دام الاجتماع نصف ساعة، كان الأهم لي مع الرئيس، على الرغم من ان علاقتنا، ابتداء من ذلك التاريخ امتدت في العمق وفي الزمن حتى اليوم الأخير من حياته، بل يمكنني ان أقول انها لم تنته بوفاته، إنما اتخذت بعداً آخر".

إذا همه كان المواطن وهدفه خلق تيار إنمائي جامع للمناطق والطوائف في خدمة هذا المواطن أينما وجد بعيداً عن استغلال السياسيين. وأذكر انه كان يردد لي دائماً: ان حقوق المواطنة تزيل التحكم الطائفي والسياسي للطبقة الحاكمة.

منذ السنة الاولى من عهده عمد الى ترسيخ مفاهيم الاصلاح ومقومات الحكم لبناء دولة الاستقلال فبدأت تصدر التشريعات الناظمة لبناء الدولة وأهمها مجلس الخدمة المدنية، الضمان الاجتماعي، المشروع الأخضر، التفتيش المركزي، المجلس الوطني للبحوث العلمية، قانون النقد والتسليف، مصرف لبنان، والكل يشهد، وفي هذه الأيام، خاصة مع الأزمة الاقتصادية العالمية، الدور الكبير الذي يقوم به هذا المرفق المالي المصرفي وهو الوحيد غير المختلف عليه بين اللبنانيين... غير انني أتوقف عند القوانين والمراسيم التي اهتمت بالمدرسة والطرق والماء والكهرباء، واهمها تنفيذاً للخطة الخمسية التي وضعت نتيجة دراسات بعثة إرفد التي رئسها الأب لوبريه. ففي سنة واحدة عرفت ١٧٠ قرية في المناطق النائية المدرسة لأول مرة، ثم توالى الإنجازات فربطت ١٨٣٨ قرية في مختلف المناطق بشبكة للطرق، و ٧٦٠ قرية وصلتها المياه و ١٠٧٦ قرية وصلتها الكهرباء.

